سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾

فَتْحاً مُّبِيناً: هو صلح الحديبية عام ستة هجرية .

في سنة ٦ هجرية خرج رسول الله - ﷺ- من المدينة برفقة أصحابه إلى مكة لأداء العمرة . ولما اقترب - عليه الصلاة والسلام - من موضع الحديبية، تصدى له المشركون يمنعونه من دخول مكة، ثم بدأت بينه وبين قريش مفاوضات انتهت بتوقيع الفريقين هدنةً تعرف بـ " صلح الحديبية " .

وكانت هذه المعاهدة قد تمت، على ما يبدو، نزولاً على شروط المشركين من جانب واحدٍ، مما ملأ قلوب أصحاب الرسول كآبةً وتذمراً ، وكانوا يعتبرون ذلك صلح الذل والهوان ، ولكن الرسول - ﷺ- لم يكد ينصرف من الحديبية عائداً إلى المدينة حتى نزل عليه الوحي في بعض الطريق بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ .

والسر في ذلك أن: معاهدة الصلح هذه قضت بوضع السلاح وعدم لجوء الفريقين إلى الحرب لمدة عشر سنوات ، وقد كان وقف الحرب يعني انفتاحاً لباب الدعوة على مصراعيه، ففي أعقاب الهجرة النبوية كانت عملية الدعوة والتبليغ قد توقفت تماماً أو كادت بسبب استمرار حالة الحرب بين أهل الإسلام وأهل الشرك ، أما الآن فقد أسفرت الهدنة عن مناخ هادئ معتدل يسمح بالحوار وتبادل وجهات النظر بين كلا الفريقين دون عوائق، مما غيّر ميدان المواجهة ، ففيما كان الصراع بين الجانبين قبلئذٍ يدور

في ساحة الحرب والقتال، حيث كان الفريق الثاني يتمتع بالغلبة والتفوق، فإذا بالصراع ينتقل مركز ثقله الآن إلى ميدان النظرية الأيديولوجية، حيث كان التوحيد طبعاً في موقع الغالب المتفوق إزاء الشرك بصورة صريحة وحاسمة، وذلك هو " الصراط المستقيم " في هذا السياق، الذي قد امتن الله على الرسول بإرشاده إليه، أي الطريق الذي كان فيه الضمان الحتمي الأكيد لانتصار حاملي لواء التوحيد !

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

السَّكِينَةَ: السكون والطمأنينة والثبات.

ظَنَّ السَّوْءِ: ظن الأمر الفاسد المذموم.

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ: دعاء عليهم بنصره.

المراد بـ " السكينة " هنا : التزام الهدوء وعدم الثورة رغم كل محاولات الإثارة والاستفزاز ، فقد لجأ معارضو الإسلام أثناء سفر الحديبية إلى استفزاز المسلمين بشتى الطرق، حتى يندفعوا إلى تبني خطوة يتخذ منها المعارضون ذريعة للاعتداء عليهم ، غير أن المسلمين تحملوا كل استفزاز برحابة صدر، وظلوا متمسكين بخطة الإعراض

من جانبٍ واحدٍ حتى آخر لحظةٍ، وإنه لو شاء الله - وهو القوى العزيز - لأخضع الباطل وأظهر عليه الحق بتدخلٍ منه مباشر ، إذن، فما السر في أنه تعالى يعرّض أهل الإيمان لأحوال كأحوال " صلح الحديبية " عبر مسيرتهم الإيمانية ؟

الحكمة من هذا الابتلاء هي زيادة إيمان المؤمنين ، فحين يكبت المرء دوافع الانتقام في داخله، ويصالح قوماً طاغين لأن هذا هو مقتضى دعوة الحق، فإنه يفعل حينذاك بموجب قراره الشعوري شيئاً لم يكن قلبه راضياً بفعله ، وهكذا فهو يعمل على تنمية شعوره الإيماني، ويجعل من وجوده مهبطاً لكيفيات ربانية لا يمكن التمتع بها بأي طريقة أوْ تدبير آخر . كما تنطوي سنة الابتلاء الإلهية هذه على فائدةٍ أخرى، وهي أنها تمحص الناس وتميز من يستحق منهم الجنة ممن هو من أصحاب النار .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠ ﴾

وَتُعَزِّرُوهُ: تنصروه تعالى بنصرة دينه.

وَتُوَقِّرُوهُ: تعظموه تعالى وتبجلوه.

وَتُسَبِّحُوهُ: تنزهوه عما لا يليق بجلاله.

بُكْرَةً وَأَصِيلاً: غدوة وعشيا أو جميع النهار.

نَكَثَ: نقض البيعة والعهد.

في ترجمته الفارسية لمعاني القرآن الكريم قد فسر شاه ولي الله الدهلوي وصفه

"شاهداً" بعبارة : (إظهار حق كننده) يعني مبيناً للحق ومظهراً له وهذا هو المدلول الأقرب إلى الصحة والصواب لهذا اللفظ، فالمسئولية الأساسية الملقاة على عاتق الرسول تتلخص في أن يتناول الحقيقة بالتبيين والإظهار، ويوضح للناس من الذين ينعمون في الحياة الأبدية بعد الموت بثواب الله ، ومن الذين يتعرضون لعذاب الله ، وقيام شاهد للحق كهذا يضع مخاطبيه على محك اختبار أقسى ما يكون، إذْ يُضطر هؤلاء إلى أن يستمعوا صوت الله من خلال صوت أحد البشر، وأن يروا في شخص " إنسانٍ " مندوبَ الله مع كونه لا يختلف عنهم من حيث مظهره في شيءٍ ، وأن يحسبوا - وهم يضعون أيديهم في يده للمبايعة - أنهم يضعون أيديهم في يد الله ! والذين يقيمون الدليل على هذه الدرجة العالية من المعرفة لهم عند الله أجر عظيم، وأما الذين يفشلون في هذا الامتحان فلهم عذاب غليظ !!

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

المُخَلَّفُونَ: عن صحبتك في عمرة الحديبية.

لَّن يَنقَلِبَ: لن يعود إلى المدينة.

قَوْماً بُوراً: هالكين أو فاسدين.

رأى رسول الله - ﷺ- في منامه - وهو بالمدينة - أنه يزور مكة معتمراً ، وبمقتضى هذه الرؤيا خرج - عليه الصلاة والسلام - مع أصحابه إلى مكة لأداء العمرة ، غير أن الظروف يومئذٍ كانت سيئةً للغاية، حيث كان من المحذور جداً أن يقع صدام عنيف مع قريش يُسفر - بطبيعة الحال - عن سفك دماء المسلمين بغزارةٍ ، وقد حدث بالفعل أن المسلمين لما اقتربوا من مكة حاولت قريش استفزازهم بشتى الأساليب ، حتى رمى بعض فتيانهم المعسكر الإسلامي بالحجارة والنبل، ليثور غضب المسلمين فيندفعوا إلى قتالهم ، ولكن تمسك الرسول وأصحابه بالصبر والإعراض خيب آمال قريش وأحبط محاولاتهم العدوانية الشريرة .

وتحسباً لهذه المخاوف ذاتها لم يَخرج معه - عليه الصلاة والسلام - أعراب المدينة وكثير من ضعاف المسلمين ، ولما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة سالماً على خلاف توقعاتهم السيئة، جاءوا إليه يعتذرون ويُظهرون له صدق الولاء والوفاء ، ولكن اعتذارهم قوبل بالرفض ، لأنه كان اعتذاراً كاذباً ولم يكن صادقاً، وبينما يحظى الاعتذار الصادق عند الله دوماً بالقبول الحسن، لا يقابل الاعتذار الكاذب إلا بالرفض المطلق !!

ولم يكن تقاعس هؤلاء عن الخروج مع رسول الله بناء على عذرٍ حقيقي ، وإنما كان نتيجة ضعف الإيمان وانعدام اليقين ، وقد ظنوا أنهم بابتعادهم عن رحلة محفوفة بالأخطار كهذه يحفظون مصالحهم، وما درَوْا أن مالك النفع والضرر هو الله، وأن التدابير الوقائية، مهما بلغت من الدقة والإتقان، لن تنقذ صاحبها لو لم يرد الله إنقاذه ، بل ربما تكون هي السبب في هلاكه، وليس لأمثال هؤلاء إلا الضياع والدمار في الدنيا والآخرة !!

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ

يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ: اتركونا نخرج معكم لخيبر.

كَلامَ الله : حكمه باختصاص أهل الحديبية بالمغنم.

لقد كان اليهود ، قبل صلح الحديبية جريئين جداً في معاداة المسلمين، ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا يتمتعون بتعاون قريش الكامل معهم في هذا الصدد ، ولكن هدنة الحديبية لم تلبث أن قطعت أواصرهم مع قريش، كما جعلتهم في شبه عزلةٍ تامةٍ عن حلفائهم من القبائل العربية الأخرى كذلك ، فانهارت على إثر ذلك، معنويات اليهود القاطنين في خيبر وتيماء وفدك .. إلخ، ومن ثم حين زحف رسول الله - ﷺ - بجيوش المسلمين، بعد عقد الصلح بثلاثة أشهر فقط، نحو يهود خيبر، لم يتحمسوا للنضال طويلاً، وإنما اضطروا، بعد مقاومةٍ محدودةٍ ، إلى الاستسلام، والتنازل عن قدر هائلٍ من أموالهم للمسلمين مقابل الصلح ، وضعاف الإيمان الذين لم يخرجوا مع الرسول في سفر الحديبية باعتباره سفراً خطيراً غير مضمون النتائج، هاهم أولاء يرغبون هذه المرة في الانضمام إلى الجيش الإسلامي الزاحف نحو خيبر، ليكون لهم من مغانمها المرجوة نصيب ، ولكنهم منعوا من الخروج صراحةً ، فقد جرت سنة الله بأن من يتحدى الأخطار هو الذي يحصل على الربح والمنفعة، وأما إذا أراد المرء الحصول على المنفعة بدون مخاطرة ولا مجازفة؛ فكأنما يرغب في تبديل السنة الإلهية، ولكن ليس في مقدور أحدٍ أن يتناول سنة الله هنا بالتغيير أوْ التعديل !!

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ

يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ: أصحاب شدة وقوة في الحرب.

حَرَجٌ: إثم في التخلف عن الجهاد.

إن الذين تقاعسوا عن الخروج في عمرة الحديبية (سنة ٦هـ) لضعف إيمانهم، وإن كانوا قد حُرموا نتيجة ذلك، مما ساق الله إلى المسلمين من فتح قريب وغنائم عاجلة كثيرة، إلا أن الباب لم يُغلق في وجوههم بعدُ، إذْ كانت ثمة معارك أخرى كبيرة لا تزال تنتظر مسيرة التوحيد الطويلة، فكأنما قيل لهؤلاء : لئن أقمتم الدليل على التضحية والفداء في تلك المعارك المرتقبة مستقبلاً، إنكم ستعودون من جديدٍ أهلاً لفيض الرحمة الإلهية !!

ومثل هذا الامتحان يقرر ما إذا كان المرء مؤمناً أوْ منافقاً ، ولا يُستثنى من هذا سوى أولئك الذين يعانون من بعض الأعذار ، والله – سبحانه وتعالى – يعفو عن التقصير الاضطراري، ولكنه لا يعفو عن التقصير الصادر عمداً !!

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

يُبَايِعُونَكَ: بيعة الرضوان بالحديبية.

فَتْحاً قَرِيباً: فتح خيبر عام سبعة .

أَحَاطَ الله بِهَا: أعدها لكم أو حفظها لكم.

في أثناء سفر الحديبية تأزم الموقف إلى أبعد الحدود عندما انتشرت بين المسلمين شائعة مؤداها أن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان الذي كان قد ذهب إليهم بوصفه سفيراً لرسول الله - ﷺ- وقد كان ذلك اعتداءً سافراً ، مما جعل رسول الله - ﷺ - يأخذ البيعة من أصحابه، وعددهم يومذاك ألفاً وأربعمائة رجلٍ، تحت شجرة "سمرة " بالحديبية، على أنهم سيظلون صامدين أمام العدو حتى الموت، ولن يولّوه الأدبار بأي حالٍ من الأحوال - وهذه البيعة تعرف بـ " بيعة الرضوان " في التاريخ الإسلامي . والمكان الذي تمت فيه هذه البيعة كان يبعد عن المدينة بمائتين وخمسين ميلاً، وعن مكة باثني عشر ميلاً فقط ، مما يعني أن المسلمين كانوا على مسافة شاسعةٍ من مركزهم، بينما كانت قريش في عقر دارها .

هذا إلى جانب كون المسلمين لا يتوافر لديهم سوى زاد المسافر وما يلزم في الطريق، لأنهم خرجوا بقصد العمرة، وأما قريش فقد كانوا متسلحين بكل أنواع المعدات الحربية . وفي موقف حرج بالغ الخطورة كهذا لم يحمل المؤمنين على مناصرة الرسول وتأييده شيء سوى عواطف الصدق والإخلاص والتفاني وحدها؛ إذْ لم يكن يوجد هناك أي ضغطٍ خارجي على الإطلاق ، والمراد بقوله : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ هو الحزن والاضطراب الذي كان قد ملأ قلوب الصحابة عقب صلح الحديبية، حيث كانت بنوده - في الظاهر - مجحفة بحقوقهم ، بيد أنهم أذعنوا لهذا الأمر الإلهي في صبر وسكونٍ، ونتيجة لذلك، لم يكد يمضي على عقد الصلح إلا بضعة أشهرٍ حتى بدأت فوائده الإيجابية بالظهور ، فقد

أدت هذه الهدنة إلى عزل قريش عن جبهة اليهود، وهكذا صار إخضاع اليهود أمراً ميسوراً، وبانتهاء حالة الحرب حظيت الدعوة الإسلامية بالتوسع والانتشار المتزايد يوماً بعد يوم، إلى أن تم عن طريق الدعوة تسخير قريش أنفسهم الذين لم يمكن تسخيرهم عن طريق الحرب على امتداد السنين !

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

لقد جرت سنة الله تعالى بالنسبة إلى المخاطبين الأوائل للنبي بأن يبيدهم عن آخرهم، إذا هم وقفوا من رسالته موقف الرفض والإنكار ، وعند الحديبية كان إنكار قريش قد تجلى بشكل نهائي واضح، ولو نشب يومئذٍ بين الفريقين قتال، والحالة هذه، لتنزلت جنود الملائكة لتقوية المسلمين وقطع دابر أعدائهم الكافرين . ولكن شاءت حكمة الله فيما يتعلق بأولئك المشركين ألا تتم إبادتهم شأن الشعوب الماضية، وإنما سيتم استخدام طاقاتهم وكفاياتهم البشرية غير العادية في خاتمة المطاف لصالح الدين الإلهي ، ولأجل ذلك أرشد الله تعالى رسوله إلى عقد الهدنة السلمية معهم .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾

إن رؤساء قريش كانوا بمواقفهم المتعنتة وتصرفاتهم المعادية ضد رسول الله قد

جعلوا أنفسهم أهلاً للعذاب وأجدر بأن يُقاتلوا أعنف قتالٍ ، ولكن لأجل مصلحةٍ عليا عقد معهم الصلح بدلاً من الحرب ، وتلك المصلحة هي أن جماعة قريش كانت تشتمل إذ ذاك على أفراد آمنوا بدعوة التوحيد سراً تائبين عن الشرك، وآخرين لم يؤمنوا بعد، ولكن من المؤكد أن صلاحهم الداخلي سيجعلهم يبادرون باعتناق الإسلام إذا ما انتهي التوتر القائم واعتدل الجو ، ولذلك لم يسمح الله سبحانه بنشوب الحرب بين الفريقين، حتى تدخل تلك العناصر الصالحة في الإيمان، وتؤدي دورها الإسلامي المطلوب في هذه الدنيا؛ لتنعم بجزاء الله الأبدي في الآخرة . إن مصلحة الدعوة أكثر أهميةً عند الله من أية مصلحة أخرى سواها .

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

إن خشية الله إذا تمكنت من نفس امرئٍ ما، أخرجت من داخله أهمية كل شيءٍ آخر سوى الله الواحد الأحد ، فهو يأخذ الآن يعطي الأهمية كلها لله وحده ، وقد كان موقف الحديبية امتحاناً قاسياً شديداً من هذا النوع بالنسبة إلى صحابة الرسول، وقد وُفقوا إلى اجتيازه بنجاحٍ ، ففي ذلك الموقف تجاوز الفريق الثاني كل الحدود في إظهار الحمية الجاهلية والعنجهية والعصبية القبلية ، ولكن الصحابة درجوا على تفويض كل شيءٍ إلى الله. إن تقوى الله المتغلغلة في أحشائهم قد حالت بينهم وبين أن يسلكوا طريق العناد الجاهلي المعاكس أوْ العصبية المضادة، فلزموا الهدوء وملكوا أعصابهم ولم يثوروا حتى اللحظة الأخيرة رغم كل محاولات الإثارة والاستفزاز من الجانب الآخر .

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

كان سفر الحديبية بناءً على رؤيا رآها رسول الله - ﷺ- حيث رأى - عليه الصلاة والسلام - في منامه بالمدينة أنه زار مكة معتمرا ففرح المسلمون بهذه الرؤيا باعتبارها بشارةً من الله، فانطلقوا من المدينة نحو مكة ، ولكن قريشاً حاصروهم بالحديبية ولم يسمحوا لهم بدخول مكة، حتى انصرف المسلمون آخر الأمر عائدين من حيث جاؤوا بدون أداء العمرة ، مما جعل بعضهم يتساءل : أين هي رؤيا النبي، ألم تكن صادقةً ؟ غير أن هذا كان شبهة فارغة ، إذْ لم يكن في الرؤيا تصريح ما بأن العمرة ستتم سنة ست هجرية !! ولقد تحقق ذلك بالفعل، وفق شروط المعاهدة نفسها، في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة في غاية الأمن والوئام، وتسمى هذه العمرة في التاريخ الإسلامي بـ"عمرة القضاء".

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

كان لرسول الله - ﷺ- حيثيتان : أما أولهما: فهي كونه نبي الله، وأما ثانيتهما : فهي كونه خاتم النبيين؛ إذْ لن يبعث بعده نبي إلى قيام الساعة ، وفيما يتعلق بالحيثية الأولى فقد كان واجبه - عليه الصلاة والسلام - يتمثل في القيام بما قام به كل من سبقه من الأنبياء والمرسلين، يعني إعلان التوحيد وإنذار الناس وتبشيرهم بما سيلقونه في الآخرة من نعيم أبدي أوْ عذاب مقيم .

غير أن الأمر كان مختلفاً بالنسبة إلى الحيثية الثانية ، فمن هذه الحيثية كان المطلوب أن يتم بواسطته - عليه الصلاة والسلام - إيجاد أحوالٍ وظروفٍ تاريخية ستكون كفيلةً

بالحفاظ على الكتاب الإلهي والسنة النبوية من الضياع أوْ التحريف؛ حتى لا ينشأ مرةً أخرى ذلك الفراغ الذي يتحتم معه بعث النبي الجديد، وقد كان من مقتضيات ذلك ألا تنتهي دعوته - عليه الصلاة والسلام - عقب " الإعلان " وكفى، بل تدخل مرحلة " الثورة " . والمراد بالثورة هو إحداث تغيرٍ في التاريخ العالمي بحيث تنتهي إلى الأبد تلك الأحوال والملابسات التي كانت وراء تعرض هداية الله بين الحين والآخر للتلاشي أوْ التشويه عبر القرون السالفة ، مما كان يقتضي أن يأتي نبي جديدٍ ليقوم بإحياء الهداية الإلهية في صورتها الأصلية النقية الخالصة ..!!

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

كان رسول الله - ﷺ - قد انتدبته العناية الإلهية لأداء دورٍ تاريخي عظيم ، أطلق عليه القرآن الكريم " إظهارا الدين " . ولكي يقوم - عليه الصلاة والسلام - بهذا الدور التاريخي خير قيام كان بحاجةٍ إلى جماعةٍ من البشر الممتازين ، وقد تم إعداد هذه المجموعة البشرية بإسكان سيدنا إسماعيل في قلب الصحراء العربية، ولقد كانت مجموعة بني إسماعيل هذه تتميز بسمات حيويةٍ جعلتها بحقٍ مجموعةً فذةً لا نظير لها في التاريخ، ومن هنا فحين استنارت كفاياتها الكامنة بنور القرآن الكريم، تحولت، على حد تعبير البروفيسور "مرغوليوث " إلى شعب من الأبطال ، وقد كانت هذه الجماعة بالغة الأهمية عند الله لدرجة أنه عرّف أنبياءه بها سلفاً ، ففيما كانت التوراة تتضمن السمات الشخصية لأفراد هذه الجماعة، جاء الإنجيل يحتوي على خصائصهم الجماعية ،

وقد وُصف أفراد تلك الجماعة بأنهم غلاظ شداد بالنسبة إلى الكافرين ورحماء لينو العريكة بالنسبة إلى إخوانهم المؤمنين ، أي إن سلوكهم يتحدد بحكم المبدأ وليس بحكم الأهواء والرغبات ، وقد شرح ذلك الشاه عبد القادر الدهلوى بقوله : " إن الشدة واللين من شأنهما - ماداما في حالتهما الغريزية الأولى- أن يظهرا تلقائياً وبدون أي ضابطٍ أوْ تمييزٍ حيثما وُجد التهييج الخارجي لهما ، وأما إذا تم صقلهما وتهذيبهما بالإيمان، فإن كليهما لا يظهر إلا في مكانه المناسب ولا يتعداه بحالٍ من الأحوال !!

كما أن من السمات المزاجية المميزة لأفراد هذه الجماعة : إكثارهم من الخضوع والسجود أمام الله، وانشغالهم الدائم في عبادته وذكره عز وجل . وقد بلغ منهم التوجه نحو الله حداً يُرى معه أثر ذلك متجلياً في وجوههم ، إن صفة أصحاب الرسول هذه لا توجد بهذا التفصيل في التوراة المحرفة لدى اليهود ، غير أن لفظة " القديسين " مازالت موجودة في سفر " التثنية " حتى أيامنا هذه . (راجع : التثنية، الإصحاح الثالث والثلاثون).

أما نبوءة الإنجيل فلم تزل موجودةً حتى الآن في الإصحاح الرابع من إنجيل مرقس وفي الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متىّ ، وهي تمثيل بليغ ، فحواه أن دعوة الإسلام ستبدأ في مكة شأنها شأن نبتةٍ صغيرةٍ ناعمةٍ ، ثم تأخذ في النمو والازدهار شيئاً فشيئاً حتى تستحيل شجرةً وارفةً عملاقةً ، وإنها لتبلغ في نهاية المطاف من القوة والرسوخ والتماسك درجةً يفرح بها أهل الحق ويسرون ، بينما يأكل الغيظ والحقد قلوب أهل الباطل لكونهم يرونها تمتد وتزدهر رغم أنوفهم ، وهم لا يقدرون على النيل منها أو اقتلاع جذورها بأية حيلة أو وسيلةٍ !!